

الدعوة الفاطمية السرية

ضوء على موضوعها وغايتها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما قامت الدعوة الفاطمية بمصر ، وامتد سلطان الشيعة السياسي بين المغرب وأقصى الشام ، عنى الفاطميون أشد العناية بالمسائل الذهبية ، وعملوا على بث العقائد والبادئ الشيعية بكل الوسائل ، واتخذت هذه الدعاية صفة رسمية في مجالس الحكمة الشهيرة التي كانت تنظم بآدى بدء في القصر الفاطمي وفي الجامع الأزهر تحت رعاية الخليفة نفسه ، ويقوم بتنظيمها قاضي القضاة أو داعي الدعاة ؛ ثم أنشئت لها بعد ذلك جامعة رسمية خاصة هي دار الحكمة الشهيرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥م) ، ولبثت عصراً تقوم بيث الدعوة الفاطمية السرية في صور وأساليب مازال يحيط بها الخفاء والغموض . ولقد تقلبت دعوة الشيعة قبل ظفرها السياسي الحاسم على يد الخلفاء الفاطميين في أدوار ومراحل مختلفة ، وتشعبت مذاهبها وإمامتها ، فظهرت الدعوة الاسماعيلية أولاً في ثوب دعوة دينية سرية ؛ ثم كانت فورة القرامطة التي قامت عليها وانتسبت إليها ؛ ثم كان ظفر الفاطميين ، وقيام الخلافة الفاطمية ، فالتحذت الدعوة الشيعية بذلك لونها السياسي الواضح الى جانب لونها الديني ، وأدرك الفاطميون ما للدعاية الدينية من أثر في توطيد الملك السياسي ، فعملوا على بث مبادئهم وتعاليمهم بقوة وذكاء ، ووضعوا لذلك نظاماً ومراتب سرية ، كانت دار الحكمة القاهرية مجمعها ومبعث وحيها

وقد اتخذت هذه الدعوة في عصر الحاكم بأمر الله لونها من الخفاء والنمف ، لم تتخذ في أي عصر آخر ، بسببه عليها خفاء الحاكم وعنفه ، وغريب تصرفاته وأهوائه . وكان الحاكم بأمر الله شخصية جريئة مدهشة برغم اضطرابها وتناقضها ، ترتفع أحياناً في سماء التفكير حتى لترغم السموم فوق البشر وتهم في دعوى الألوهية ؛ وتنحط في تصرفاتها الى درك الجنون . وكان ذلك

حق من الله ثم من الأمة ثم من الرجل نفسه ثم من لطف المرأة وكرمها ثم مما بينهما معاً . وليس عجيباً بعد هذا ما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لو كنت امرأةً أحداً أنت يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق »

وهذه عائشة أم المؤمنين قالت : يا معشر النساء لو تعاملن بحق أزواجهن عليكن ، لجعلت المرأة منكن تمسح الفبار عن قدمي زوجها بحجر وجهها

قال أبو معاوية : وكان الشيخ قد استبطأني وقد تركته في فناء الدار ، وكنت زودت في نفسي كلاماً طويلاً عن فروته الحقيرة التي يلبسها ، فيكون فيها من بذاعة الهيئة كالأجير الذي لم يجد من يستأجره فظهر الجوع حتى على ثيابه ... وقد بر بالشيوخ رجل من المسوذة^(١) وكان الشيخ في فروته هذه جالساً في موضع فيه خليج من المطر ، فجاءه المسوذة فقال قم فاعبر بي هذا الخليج ، وجذبته بيده فأقامه وركبه والشيخ يضحك وكنت أريد أن أقول لأم محمد : إن الصحو في السماء لا يكون فقرأ في السماء ، وإن فروة الشيخ تعرف الشيخ أكثر من زوجته ، وإن المؤمن في لذات الدنيا كالرجل الذي يضع قدميه في الطين ليمشي ، أكبر همه ألا يجاوز الطين قدميه ولكن صوت الشيخ ارتفع : هل عليكم إذن ؟

قال معاوية : فبدرت وقلت : بسم الله ادخل ؛ كآني أنا الزوجة .. وسمنت همساً من الضحك ؛ ودخل أبو محمد جلس الى جانبي ، وغمزني في ظهري غمزة : فقلت : يا أم محمد إن شيخك في ورعه وزهده ليشبه ما يشبع الهدهد ، وبرويه ما يروى العصفور ، ولئن كان متهدماً فانه جبل علم ، « ولا تنظري إلى عمش عينيه ، وحموشة ساقيه ، فانه إمام وله قدر »^(٢)

فصاح الشيخ : قم أخزأك الله ، ما أردت إلا أن تعرفها عيوني ! قال أبو معاوية : ولكني لم أتم ، بل قامت زوجة الشيخ فقبلت يده .

للأستاذ محمد عبد الله

طنطا

(١) الذين يلبسون السواد وهم شيعة الباسيين

(٢) ما بين القوسين هو الوارد في التاريخ وعليه بيننا هذه النعمة

الذهن الهائم يشغف بنظريات الخفاء والعالم الآخر ، وبهم في عمر الباحث الروحية والفلسفية ، ويفيض من خفائه وشذوذه على جماعة من الدعاة الأذكياء الذين يحشدهم الحاكم حوله لينظموا معه وسائل الدعوة المذهبية السرية ، وليحملوا دونه تبعاً ماتعرض من الأقوال والنظريات الجريئة الممننة في الاتحاد والهدم . ومن الحقائق المرروفة أن معظم الكتب والوثائق المذهبية التي وضعت في هذا العصر قد دثرت ومحت معالمها يد الدول الخصيمة ، ولم تتلق عن هذه الدعوات السرية سوى قليل من الرسائل والشذور التي نقلها البنا بعض المؤرخين المتأخرين . على أن هذه الوثائق القليلة التي انتهت البنا تلقى مع ذلك شيئاً من الضياء على طبيعة هذه البداى والأقوال الخفية التي عمل الدعاة الفاطميون كثيراً لبنا ، والتي بشت في عصرها الى أصول الاسلام الحقيقية كثيراً من سحب الزيف والريب

ومن هذه الوثائق طائفة غريبة من الرسائل الفلسفية الكلامية تحتفظ بها دار الكتب المصرية ، وهي متنوعة في موضوعها ، ولكنها متحدة في أسلوبها وتدلليها وغايتها ؛ ويبدو من تلاوتها لأول وهلة أن موضوعها إنما هو جزء من الدعوة السرية الفاطمية ، وأنها كتبت في أواخر عصر الحاكم بأمر الله ، وأنها حسباً يدعى كاتبها قد وضعت بوحيه وإرشاده ، وأحياناً بالتلقى عنه . أما كاتبها فمن هو ؟ في معظم هذه الرسائل يقدم لنا هذا الداعية الغريب نفسه ، ويذكر لنا اسمه وهو « حمزة بن علي ابن أحمد » وهو اسم قلما تذكره سير مصر ، ولا تقدم لنا أى تعريف شاف عن صاحبه ، وكل ما نعرفه أنه فارسي من مقاطعة زوزان ، وكان عاملاً يشتغل بصنع اللباد ، وقد على القاهرة حوالى سنة ٤٠٥ هـ وانتظم بين الدعاة ، وخاض غمار الجدل الدينى الذى كانت تضطرم به مصر يومئذ . وما تجدر ملاحظته أن معظم الدعاة والملاحدة الذين خرجوا على الاسلام وحاربوه باسمه ينتمون الى أصل فارسي ؛ بيد أنا نستطيع أن نعرف من هذه الرسائل كثيراً عن شخصيته وعن مهتمه ؛ فهو بلاريب من أكبر الدعاة السريين الذين اتصلوا بالحاكم بأوثق الصلات ، وتلقوا وحيه ، وبثوا دعوته ، وكان لهم أكبر النفوذ في التوجيه الخفى لكثير من مسائل العصر ؛ وسنرى حين نمرض الى مهتمه

الحقيقية والى رسائله الغريبة أنه يقدم لنا نفسه أيضاً في صفة النبوة ، ويصف لنا بعض أعماله بالمعجزات ولدنيا من هذه الرسائل مجموعتان : إحداهما فتوغرافية نقلت عن مخطوط محفوظ بالمراق ، والثانية خطية ، وقد اقتنتها دار الكتب أخيراً^(١) ، والمجموعة الأولى أكبر وأعم من الثانية ، وبها كثير من الرسائل التي وردت فيها ؛ غير أن الثانية (الخطية) تحتوى أيضاً على بعض رسائل لم ترد في الأولى . وتسمى المجموعة الأولى في صفحة العنوان « بالرسالة الدامغة » وتمت بانها رد على النصيرى (الفاسق) وهو ما يقوله لنا كاتبها أيضاً في الديباجة ؛ وفي معظم هذه الرسائل يذكر لنا الكاتب اسمه وهو حمزة بن علي . ولكن هناك مجموعة نائة تختلف في موضوعها عن المجموعتين السابقتين ، وليس لها عنوان ، ولم يذكر فيها اسم الكاتب ، ولكننا لا نشك في أنها من تأليف حمزة بن علي نفسه لما بينها وبين الرسائل الأخرى من التشابه الواضح في الروح واللجة والأسلوب^(٢) . وسنرجى الكلام عليها الآن ؛ ونبدأ يبحث رسائل هذا الداعية الغريب ، حمزة بن علي ، ونحاول أن نستخرج منها بعض الحقائق التاريخية التي ما زالت تقدم إلينا في أبواب من الريب والغموض والتناقض ، والتي كانت أعظم ظاهرة في عصر الحاكم بأمر الله ، وكانت مستقى لكثير من النزعات والأهواء الدهشة التي أحاطت تلك الشخصية الغريبة بسياج كثيف من الخفاء والروع

من الحقائق التاريخية المرروفة أن بعض الدعاة الملاحدة قد دعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله ، وأن الحاكم كان يفتدى هذه الدعوة ويعدها بتأييده . وقد ذكر لنا ذلك أكثر من مؤرخ ، في مقدمتهم ابن الصائى ، وهو كاتب معاصر ، وشمس الدين سبط ابن الجوزى ، والذهبي^(٣) ؛ وكان في مقدمة هؤلاء الدعاة شخص يدعى بالأخرم ، زعم ألوهية الحاكم ودعا إليها جهراً في جامع عمرو

(١) تحفظ المجموعة الأولى برقم ٥٤ عقائد النحل ، وتحفظ الثانية برقم ١٣٣ عقائد النحل

(٢) تحفظ هذه المجموعة برقم ٣٥ عقائد النحل

(٣) نقل البنا صاحب النجوم الزاهرة روايات هؤلاء المؤرخين الثلاثة

(ج ٤ ص ١٨٣ و ١٨٤)

ويقدم لنا بعد ذلك خلاصة موجزة عن معركة علي ومعاوية وبدء الحركة الشيعية ؛ ثم يصف الحاكم بأنه « مولانا القائم بذاته ، المنفرد عن مبتدعائه ، جل ذكره ، أورا العالم قدرة لاهوتيه مالم يقدر عليه ناطق في عصره ولا أساس في دهره ... »^(١) ويطلق عليه لقب « قائم الزمان » ، في جميع مراحل الدعوة رمزاً إلى القول بالحلول والتناسخ ، وأنه هو الرمز الحى القائم . ويعرض الداعي بمد ذلك في جرأة إلى قواعد الاسلام ، وإلى ما يلقى في شأنها في مجالس الحكمة الباطنية ؛ وهنا نستطيع أن نظفر بلحمة من الضياء على موضوعات تلك المجالس السرية الشهيرة التي لبثت عصراً تعقد بالقصر ثم انتظمت بعد ذلك في جامعة خاصة هي دار الحكمة ؛ وأول ما نعرف هو أن السرية كانت قاعدة أساسية لهذه المجالس ، وأن من يجرؤ على إنشاء مناقشاتها يعتبر منافقاً وخارجاً يستحق اللعنة والعقاب^(٢) . وقد نقل إلينا القرزى بياناً ضافياً عن المبادئ الكلامية العامة التي كانت تدور عليها الدعوة الفاطمية السرية في مراتبها التسع ؛ ولكن الداعي يتناول هنا بعض الشروح الخاصة ؛ فيحدثنا عن الزكاة مثلاً بأنها في الحقيقة ليست كما تلقى إلى الناس ؛ بل هي الاعتراف بولاية علي بن طالب والأئمة من ذريته والتبري من أعدائه أبي بكر وعثمان ، وأن معناها الياطن هو في الحقيقة « توحيد مولانا جل ذكره ، وتركية قلوبكم وتطهيرها من الحالتين جميعاً ، وترك ما كنتم عليه قديماً »^(٣) . وعن الصوم بأنه من الناحية الباطنة صيانة القلوب بتوحيد مولانا جل ذكره . أما الحج ورسومه فيحمل عليها الداعي بشدة ، ويصفها بأنها « من ضروب الجنون » وليس أدل على ذلك من أن قائم الزمان (الحاكم) قد قطع الحج والكسوة النبوية ، أعواماً طويلة ؛ ومعنى الحج في الحقيقة والباطن « هو توحيد مولانا »^(٤) . وأما ترك الحاكم للصلاة والنحر (في عيد الأضحى) فهو تحليل ذلك للعباد ، وقد أبطل الحاكم صلاة العيد وصلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وأسقط الزكاة ، ومعنى ذلك أنه يحل للعباد (عباده) أن يقتدوا به في ذلك « إذ كان إليه المنتهى ،

مع نفر من أصحابه ، فنار الناس بهم ومزقوهم وفر الأخرم ؛ ثم قام بهذه الدعوة داعية آخر هو محمد بن اسمعيل الدرزي ، وكان أوفر ذكاه وبراعة ، فصاغ دعوته في مذهب منظم ذي قواعد وأصول خاصة ، وألف كتاباً في ذلك ؛ فقربه الحاكم وتمكن نفوذه لديه حتى غدا أقوى رجل في الدولة ؛ ولكنه لما حاول إذاعة مذهب والدعوة اليه بجامع القاهرة (الأزهر) نار الناس عليه ، فالتجأ إلى القصر ، فحاصرته الجوع ، وأنكره الحاكم خوفاً من الثورة ، وعاونه على الفرار ؛ فسار إلى الشام ، ونزل ببعض قرى بانياس ، ونشر دعوته ، فكانت أصل مذهب الدرروز الشهير ؛ وقوامه القول بالتناسخ وحلول الروح ؛ وأن روح آدم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ، ثم انتقلت روح علي إلى الحاكم بأمر الله

ثم ظهرت الدعوة ككرة أخرى على يد حمزة بن علي ، والظاهر أن حمزة عمل مدى حين مع الدرزي ثم اختلف معه وخاصمه ؛ كما يبدو ذلك في إحدى رسائله^(١) . وفي هذه الرسائل العجيبة يشرح لنا حمزة مذهب في « ألوهية » الحاكم بأمر الله ، ويقدم لنا شروحه وأسانيده ، ويحاول أن يملل لنا كل ما ارتكبه الحاكم من الأعمال والاجراءات الشاذة ويتخذ منها سنداً لنظريته . وقد نسقت هذه الرسائل ، وهي ثمانية ، على حدة في المجموعة المخطوطة الصغرى التي اقتنتها دار الكتب أخيراً ، وأشرنا إليها فيما تقدم ؛ ويلوح لنا أن هذه المجموعة تكون وحدة متصلة منتظمة ، وأن ما أدرج منها في المجموعة الأخرى قد أدرج على سبيل الاختيار العام من مؤلفات الكاتب ؛ ولهذا تؤثر الاعتماد عليها في عرض قواعد هذه الدعوة الغريبة التي كادت تحدث في هذا العصر نفرة خطيرة في صرح الاسلام ومبادئه الحقيقية كتلك التي أحدثتها فورة القرامطة قبل ذلك بنحو قرن

يفتح الداعي كتابه بما يسميه « ميثاق ولي الزمان » ، وفيه صورة الشهاده بالتبرؤ من جميع الأديان الأولى والدعوة إلى الدين الجديد ، أي عبادة الحاكم ؛ ثم يحدثنا عن أصل العالمين وبدء الخليقة في عبارة غامضة ويقول إن أصل العالم هو البرودة والحرارة ؛

(١) ص ٢٥ من المخطوط

(٢) ص ٣٩ من المخطوط

(٣) ص ٣٥ من المخطوط

(٤) ص ٤٤

(١) راجع الرسالة الرابعة الموسومة بالناية والتصبحة (ص ١٢٥ -

١٢٦ من المخطوط)

النظر ؛ ذلك أنها تعنى أن الحاكم بأمر الله قد اشترك في تأليف بعض هذه الرسائل سواء بالكتابة أو الاشراف على كتابتها ، وأنه كان يرعى هذه الدعوة ويشجعها بنفسه ؛ وهنأ أيضاً يعرض الداعي جوهر دعوته ولباب مذهبه ، أعني فكرة الحلول ، فيزعم أنه من الخطأ أن يعتبر الحاكم ابناً للعزير أو ينتم بأنه أبو علي ؛ ذلك لأنه في زعمه « المولى سبحانه هو هو في كل عصر وزمان » يظهر في صورة بشرية « كيف يشاء وحيث يشاء »^(١). وفي الرسالة الرابعة وعنوانها « الغاية الناصحة » يحاول الداعي أن يقيم المفاضلة بين الاسلام أو دين محمد والدين الجديد . وفي الخامسة وهي « كتاب فيه حقائق ما يظهر » يحاول أن يبرر بعض تصرفات الحاكم . وفي السادسة وهي « السيرة المستقيمة » يحددنا عن آدم وأصل الخليقة ويزعم أن الاسلام قام بالعنف والسيوف ، وأن الشريعة الاسلامية اختتمت بمحمد بن اسماعيل ، وأن آخر خلفاء اسماعيل هو عبد الله المهدي (مؤسس الدولة الفاطمية) ، وأن القائم هو الحاكم^(٢) وفي السابعة الموسومة « بكشف الحقائق » يلجأ الداعي إلى العبارات الرمزية ويقول : « والآن فقد دارت الأدوار ، وظهر ما كان مخفياً من مذهب الأبرار ، وبأن للعالمين ما جعلوه تحت الجدار ، وعادت الدائرة إلى نقطة البيكار ، فألفت هذا الكتاب ، بتأييد مولانا البار ، الحاكم القهار ، العلي الجبار ، سبحانه وتعالى عن مقالات الكفار ، وسميته كشف الحقائق .. » ولعله يريد بهذا الاسم - كشف الحقائق - عنوان الكتاب كله ، لا الرسالة الموسومة بهذا الاسم فقط ، فإذا صح ذلك فنكون أيضاً قد عرفنا اسم كتاب حمزة . وفي هذه الرسالة يزعم الداعي أن الآله بشر يأكل ويشرب ، وليس كما زعموا من التجرد عن الصفات البشرية ، ويقدم لنا شرحاً فلسفياً للعقل والنفس . وفي الرسالة الثامنة والأخيرة ، وعنوانها « سبب الأسباب » يتخذ الداعي صفة الهادي والعلم الأكبر بتفويض مولاه

محمد عبد الله عناه
الحامى

« للبحث بقية »

(١) ص ٨٦ (٢) ص ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٨

ومنه الابتداء في جميع الأمور»^(١)

ويؤرخ الداعي هذا القسم الأول ، وهو القسم التمهيدى من كتابه بشهر صفر سنة ثمان وأربعمائة من الهجرة (٤٠٨ هـ) ؛ ويقول لنا إن هذه السنة « هي أول سنين ظهور عبد مولانا ومملوكه ، هادى المستجيبين ، المنتقم بسيف مولانا جل ذكره ... الخ » ، ومعنى ذلك أن حمزة بن علي كان يتحل فوق صفة الداعي ، صفة الرسالة أو النبوة ، وسرى أنه ينتحلها بعد ذلك صراحة . وهو يرجع بدء رسالته إلى هذا التاريخ ؛ ثم يقول لنا في خاتمة رسالته الأولى المسماة « بدء التوحيد لدعوة الحق » ، إن سنة ٤٠٨ هـ أيضاً « أول سنين قائم الزمان » أعني بدء الزعم « بألوهية » الحاكم بأمر الله ، على يد هذا الداعي . وقد كان من قبل ثمة دعاة آخرون روجوا لهذا الزعم كما قدمنا ؛ والظاهر أن حمزة هو آخر من ظهر من حشد أولئك الملاحدة في عصر الحاكم ، لأن الحاكم لم يطل أمد حكمه بعد ذلك سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، وكان مصرعه في شوال سنة ٤١١ هـ في ظروف غامضة ، اتخذها الدعاة مستقياً جديداً للزعم والأرجاف

ثم تأتي بعد ذلك الرسائل الثمان ؛ والأولى هي « بدء التوحيد لدعوة الحق » وفيها يدعو حمزة إلى « ألوهية » الحاكم ، ويحاول أن يبرر لإبطاله لأحكام الشريعة بأن محمداً (ص) قد نسخ كل الشرائع السابقة ، فكذلك ينسخ الحاكم شريعة محمد^(٢) وينشئ له شريعة خاصة . وفي الرسالة الثانية وهي « ميثاق النساء » يتحدث الداعي عن واجبات النساء في الطاعة والتوحيد والبعد عن الفساد والدنس ، وألا يشغلن قلوبهن بنير توحيد « مولانا » وأن يكن صادقات وفيات في طاعته ، وأن يتركن ما كن عليه من قبل^(٣) ، وفي الرسالة الثالثة وهي « رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد » يوصى الداعي بعبادة الحاكم ، والاقرار بوحدته ، ويقول إنه رفعها بنفسه إلى « الحضرة اللاهوتية » ، في شهر المحرم الثاني من سنه المباركة (المحرم سنة ٤٠٩) ، وأنها نسخت عن خط قائم الزمان بنير تحريف ولا تبديل^(٤) ؛ وفي هذه العبارة ما يستوقف

(١) ص ٢٩ و ٣٠ و ٣٤

(٢) المخطوط ص ٥٣ و ٥٤

(٣) ص ٧٣

(٤) ص ٧٥